صدى "مالك بن نبي" في العالم العربي والإسلامي

أ. إبراهيم إبراهيمي
جامعة الجلفة

تستطيع أن تقرأ لمالك بن نبي عدة مرات... وفي كل مرة تكتشف جديدًا... تستطيع أن تقرأ لمالك بن نبي ثم تنسى كل ما قرأت... ومع ذلك تتأثر بالرجل وبأفكاره بشكل عميق ، ذلك أنه لا يضيف إلى معارفك جديدًا متميزًا فقط بل يحدث تغيرًا نوعيًا في ثقافتك وفي طريقة تفكيرك وتكتشف دائمًا أنك متأثر بما طرحه الرجل دون أن تدرى ، وربما ظننت أنك نفسك الذي وصلت إلى هذه المفاهيم الصحيحة ، ثم تعرف أنها من تأثير مالك بن نبي غير المنظور عليك وعلى ثقافتك . فكر مالك بن نبي متجدد دائمًا ، ذلك أنه طرح أوجاع الأمة وأمراضها التي مازلنا نعاني منها ، وضرب في جذور أسباب التخلف وطرح أسباب النهضة بشكل عميق متجدد . ذلك هو مالك بن بني الذي كان الأكثر تأثيرًا على الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة ، ولأنه كان من العمق والاتساع بمكان فإن أحدًا لا يستطيع أن يوفيه حقه أو يدرك ملامح هذا التأثير أو يحيط بها. مالك بن نبي هو نحات في عالم الثقافة ، ذلك أنه نجح في أن ينحت بصورة عبقرية مجموعة من المفاهيم والمصطلحات كانت كلها معالم في طريق الثقافة ومحطات في طريق البحث الثقافي العربي المعاصر ففي تعليق لسماحة الشيخ عبد الرحمن شيبان . رحمه الله . : "قد ألقى الأستاذ مالك بن نبي محاضرة مشهودة في نادي "قدماء الصادقية" في موضوع "شروط النهضة" فبهر الناس بأفكاره ، بحيث جعلت المؤرخ التونسي الوزير الأديب المرحوم الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، يعلق على المحاضرة بالثناء الجم على

الْمُحَاضِرِ معلنا أنه يشهد أن المسلمين لم يعرفوا أفكارا ، مثل هذه الأفكار، التي قدمها مالك بن نبي منذ الفيلسوف الاجتماعي عبد الرحمن بن خلدون "[1] . تعددت الجهود الفكرية في الواقع العربي والإسلامي الحديث والمعاصر، والتي راحت تبحث عن مخرج للإصلاح والتغيير لواقعنا الحضاري ، وذلك لإخراجه من وطأة الهزيمة الحضارية التي مُني بها المسلم المعاصر، نتيجة لعوامل داخلية وخارجية لا تخفى تداعياتها على كل راصد ومتابع لمسار المرحلة وما أفرزته من تحديات شكلت تهديدًا مباشرًا لكياننا السياسي والحضاري . يقول ابن نبي: "إن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هي مشكلة الحضارة" [2]. لماذا ؟ لأن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته ، ولا يمكن أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية ، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها ويشير ابن نبي إلى خاصية هامة أضافها العقل المسلم في تاريخ الحضارات، فلو كنا مبررين للفكر الإسلامي من ناحية تطور العلم ، لكنا مكتفين بابتكارين لولاهما لم يصل التقدم التكنولوجي في القرن العشرين إلى ما وصل إليه : " أولهما النظام العشري في الحساب وثانيهما علم الجبر الذي نقل الأرقام من صورتها المحسوسة إلى الرموز المجردة . وهذا وحده كفيل بأن يجعلنا ندرك ما يدين به العقل الإنساني للعقل الإسلامي من وسيلة لا يستطيع بدونها السير والتقدم في ميدان العلوم، علوم الضبط والتقدير الحاسم ، ونحن ندين بوضع هذا النظام وذاك العلم لذلك المناخ العقلي الذي كونته القيمة القرآنية في المجتمع الإسلامي"[3]. يطرح ابن نبي أهمية التوازن والتعادل في المعادلة الحضارية ، ف "ما كان لحضارة أن تقوم إلا على أساس من التعادل بين الكم والكيف ، بين الروح والمادة ، بين الغاية والسبب ، فأينما اختل هذا التعادل في جانب أو في آخر كانت السقطة رهيبة قاصمة"[4] . فمالك بن نبي يركز في منهجه الفكري على الجوانب الموضوعية في معالجة مشكلة الحضارة،

وذلك بحكم تكوينه الثقافي والمنهجي واحتكاكه المباشر بالحضارة الغربية، هذا مع تأكيده على الدفعة القرآنية الحية، ودور الفكرة الدينية في معادلاته المكونة والدافعة إلى الفعل الحضاري الناجز.

وفي حديث ممتع للدكتور الأستاذ محمد الهادي الحسني[5] : "المفكر الكبير الأستاذ مالك بن نبي، الذي قال فيه الشيخ محمد سالم ولد عدود ، وزير الثقافة والأوقاف الأسبق"إن قيل من فيلسوف الدين عندكم؟ قلنا بدون تروٍّ: مالك بن نبي."لقد لقي ابن نبي ، وغيره من علمائنا، من هذه الجزائر الرسمية العنت ، والتضييق، والإساءة ، ولم تتذكره إلا في هذه السنة فنظمت ملتقى دوليا عنه ، بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاته ، ونرجو أن لا يكون هذا الملتقى ، بيضة الديك."إن الأمر الذي يعلمه الخاص والعام هو أن الرجل بريء من ذلك كله ، فقد أخلص للجزائر، وأن فرنسا – عدو الجزائر الأول والآخر ، والظاهر والباطن – قد أرهقته من أمره عسرا ، وجعلته – وهو المهندس – لا يحصل على قوة يومه إلا بشق النفس، ولو ركن إليها قليلا لأطعمته المن والسلوى، ولألبسته الغالي، وأسكنته العالي، وسودته على "الأهالي"ويعلم العام قبل الخاص أن مالك بن نبي "عاش ما كسب ، مات ما خلى" وأنه عجز عن شراء تذكرة طائرة عندما كانت شهرته تمتد من المغرب إلى المشرق ، في الوقت الذي كانت فيه أصحاب شعار "من الشعب وإلى الشعب" وشعار "الاشتراكية خيار لا رجعة فيه" تتلذذ بأكل الطيبات من الرزق... ولو لم يكن ابن نبي عفا، ومد يده – كما مدّ غيره – لفتحت له حسابات – كما فتحت لغيره – في بنوك سويسرا وفرنسا وغيرهما ، ليغرف منها كيف يشاء وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل:"الناس معادن"، والمعادن منها النفيس ومنها الرخيص.

وينقم بعض مسؤولينا من مالك بن نبي .في رد عن سؤال . ما ينقمون منه إلا لأنه دعا إلى فكر أصيل وإلى منهج قويم وإلى خلق كريم ، وأنه آمن أن

الحضارة تُعقل وتُعمل ولا تُنقل.. واستصعبوا منهجه ، وضايقوه ، وحاصروا أفكاره...

إن عمل ابن نبي لم ينقطع بعد وفاته، فقد ترك علما نافعا، وتلاميذ صالحين، منتشرين من طنجة إلى جاكرتا، يدعون له، أما خصومه فقد ماتوا قبل أن يموتوا . ومن الكلمات الخالدة التي قيلت في حقه كلمة بيار شابوي[6] يقدم شهادة حيّة عن عبقرية مالك بن نبي وفكره ، قال :" لقد كان ابن نبي مضيافا ولطيفا جدا ومباشرا في حديثه ، ولكنه كان يستمع أكثر مما يتكلم ، لقد كان دقيقا جدا في كلامه وواضحا ويختصر بقدر ما يستطيع ، وقد كانت له طريقة خاصة في التركيز على الأشياء المهمة ، لم يكن لا رجل دين ولا قانونيا ولا حتى فيلسوفا ، ما كان يهمه خطابه دون التيه في اعتبارات نظرية.....لقد كان فهم ابن نبي للإسلام بعيدا عن اللاهوتية والنظرية ، فبالنسبة له الأهم يكمن في فعالية الدين في المجتمع ، خصوصا وأن الإسلام يحمل في طياته تصورا منهجيا لكيفيات تنظيم المجتمع حيث نجد الحقوق والواجبات محددة في القرآن ، على الإنسان أن يؤدي واجبه أوّلا ثم يطالب بحقوقه ، والواجب بطبيعة الحال هو أداء الواجبات الدينية ، ولكن أيضا في بناء وتنظيم المجتمع ، وهكذا استطاع مالك بن نبي أن يحدد معايير الحضارة (الإنسان – التراب – الزمن) هذا باختصار كيف كان ابن نبي يفهم الدين وكيف اقتنعت بأفكاره وكيف اعتنقت الإسلام . وفي كلام لحفيد عبان رمضان، ، قال : " استطاع أن يجمع بين الحكمة العلمية والحكمة الفلسفية في تتبع أحوال الظواهر والأشياء وفي تحليل الحوادث والقضايا والمشكلات، وفي اتخاذ المواقف، أسلوبه يقوم على مراعاة طبيعة البشر وفطرته، ويستخدم العقل والمنطق والبراغماتية، ويستفيد من العلم والتاريخ وخبرات وتجارب الآخرين في الماضي والحاضر إلى أبعد الحدود "[7]، فكان بحقّ منهجه في التفكير والدراسة والتحليل لا يستقيم وجوده وحاله إلاّ لدى مفكر أو فيلسوف وبان ذلك بوضوح في سائر كتاباته التي نشرها تحت

عنوان كبير "مشكلات الحضارة"، من منطلق أنّ مشكلة الإنسان المعاصر في تخلّفه وانحطاطه في أصلها مشكلة تحضر. لقد كان الرجل السياسي الحقوقي الذي لم ينقطع طيلة وجوده بفرنسا عن النضال السياسي، ناضل في السرّ والعلن، على المستوى المحلي الجزائري، وعلى المستوى الإقليمي العربي الإسلامي، وعلى المستوى الإنساني العالمي، منطلقا من إيمانه الراسخ والعميق بحقوق الناس جميعا في الحياة الكريمة وفي الحرية وفي العدل والمساواة، وهو إيمان تغذّى بتكوينه الأخلاقي وبتربيته الإسلامية، فكان ينبذ التمييز العنصري وهو طبع الاستعمار، ويدعو الإدارة الاستعمارية في الجزائر وفي داخل فرنسا إلى ضمان المساواة بين أبناء الجزائر وأبناء فرنسا، وكان يدفع الظلم عن المظلومين من دون هوادة في حواراته ومناقشاته وكتاباته وفي أرائه ومواقفه من القضايا والأحداث التي كانت تعج بها حياته.

وفي شهادة من ابنته رحمة مالك بن نبي قولها [8]: كان مالك بن نبي يقول أنه سيعود بعد ثلاثين سنة كان لديه حس رقيق جدا أذكر أنه كانت هناك أغنية جزائرية عن الأم، يقول مطلعها "لالة لميمة مشيتي وما جتيش والطريق بعيدة البرية ما تمشيش..." كلما كان يسمعها يبكي كالطفل الصغير هذه الصورة ما زالت عالقة في ذهني، كما أنه كان يعمل بحديث الرسول صل الله عليه وسلم الذي يقول خاطبوا الناس على قدر عقولهم"، فإذا رأيناه مع طفل كان طفلا، وإذا رأيناه مع امرأة عجوز كان مصغيا ومتفهما فكان يعطي كل واحد حقه . غياب فكر بن نبي من الجامعات والمدارس يعود إلى حالة الإقصاء العام التي طبقت على مالك بن نبي وفكره في فترة من الفترات ، ونحن في طور إعادة النظر في المناهج حتى نبني -كما ذكرنا- ثقافة من أجل تنمية تكون منسجمة مع إطار العالم الجديد ، أنا أرى أنه يتحتم علينا إدراج فكر بن نبي في برامج التعليم الثانوي والجامعي، وهذا يرجع طبعا لقرارات رسمية ، فالسلطات لا بد أن تنظر في هذا الاتجاه، خاصة أن هناك اعترافا رسميا بمكانة فكر بن نبي في الساحة

الجزائرية . وفي حديث مع أحمد زقاوة يقول[9] : "مالك بن نبي، شخص نذر حياته في خدمة القضايا الإنسانية العادلة ابتداء من القضية الجزائرية إلى القضايا القومية والإسلامية وانتهاء بمعضلات العالم الثالث. ورغم التعتيم والتهميش الذي مورس ضده حيا وميتا، إلا أن مالكا بقي حيا يقرأ وأفكاره ما زالت تنبض بالحيوية والفعالية، تتداولها أجيال ما بعد الاستقلال في الجزائر وفي العالم الإسلامي برمته .كان رحمه الله يقول وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين فهي كلمة فارغة، كلمة ميتة". عبارته هذه تنطبق عليه تماما، فالذي كتب لأفكاره الامتداد في الزمان والانتشار في المكان إنما هو الجنين الحي الذي تحمله وتنتظر تجمع الشروط التاريخية لوضعه " .

واليوم إذ نتذكر مالك بن نبي فإننا نعيد بذلك قراءة طروحاته في ضوء مستجدات العصر وعلى وقع تغيرات الخريطة العالمية على الصعيد الثقافي والسياسي . تميز مالك بن نبي في أفكاره النهضوية جذريا عن باقي المصلحين الكبار، سواء على مستوى منهج التحليل أو على مستوى المعالجة واقتراح البدائل. فلقد استطاع أن يصل إلى هذا المقام من خلال نقده للمدارس الإصلاحية السابقة والاطلاع في المقابل على الفكر الغربي العقلاني منه خلال تمسكه برؤية شاملة في عرضه لأزمة الإنسان المسلم باعتبارها أزمة حضارية في جوهرها.، وها هو على فراش الموت يختصر القضية الكبرى فيوصي بالإسراع في إحداث التغيير لأنه إذا لم نقم نحن بثورتنا فإن التغيير سوف يأتي من الخارج ويفرض علينا فرضا وفعلا وقع التغيير، وكانت نتيجته مأساوية على العرب والمسلمين، لأن حكامهم رفضوا التغيير الآتي من الأصوات الداعية له من الداخل ، ويبقى الأمل في إعادة تجديد طاقاتنا وتوجيهها الوجهة الصحيحة والسليمة نحو رسم المستقبل الذي نريده نحن لأنفسنا ولمستقبل الأجيال قائما، يأخذ إشعاعه وروحه من أفكار النهضة التي تركها أستاذنا مالك بن نبي تنتظر من يأخذها بقوة للدخول بها إلى القرن الواحد والعشرين حتى نحقق

لأنفسنا التحرر من التخلف الاستبداد والهيمنة يقول جودت سعيد [10]: "يحدد مالكا المشكلة في جوهرها بأنها مشكلة حضارية ، ويرى أن أعمال النهضويين الأوائل افتقدت الشمولية وكانت مجزأة "فرأى رجل ـ كما يقول ـ سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة سياسية تُحل بوسائل سياسية، بينما رأى رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تُحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ ... فالعالم الإسلامي يتعاطى هنا حبة ضد الجهل، ويأخذ هناك قرصاً ضد الاستعمار، وفي مكان قصي يتناول عقاراً كي يشفى من الفقر... ولكننا حين نبحث حالته عن كثب لن نلمح شبح البرء، أي أننا لن نجد حضارة ... يأخذ مالك بن نبي على المسلمين غياب مبدأ الفاعلية من حياتهم، حيث يقول . في كتابه وجهة العالم الإسلامي . "العالم الإسلامي لم يبلغ بعد درجة النشاط، أو العمل الفني الذي يُعَدُّ وحده كفيلاً بتحديد مكانه في العالم الحديث الذي يحتل مبدأ "الفاعلية" أول درجة في سلم القيم، وهذا المبدأ من أحوج الأمور بالنسبة لنا." لقد أحدث فكر مالك بن نبي تأثيرا بالغاً في الأوساط الثقافية العربية والإسلامية، وحمل أفكاره ورؤاه مفكرون ومثقفون وكتاب، لعل من أبرزهم الشيخ الأزهري جودت سعيد.....وكثير آخرون لا يسع المقال لذكرهم .

يقول الدكتور محمد رفعت الفنيش صديق المفكر مالك بن نبي[11] : إن الاهتمام بفكر الرجل، ليس من باب التكريم ولكن بفهم الأفكار وتنفيذها على أساس شروط النهضة ، مؤكّداً أنّ المفكر مِلك لمحور طنجة جاكرتا وليس الجزائر فقط وأنّ قضية الجزائر وثورتها كانت المحور طيلة حياة الرجل. وفي شهادة نيرة منه يقول : " أنا لا أعتقد بوجود عالم اجتماع بقيمة مالك بن نبي في العالم الإسلامي فالاهتمام ليس اهتماماً عاطفياً ، وإنّما أهمية أفكار بن نبي، خاصة في هذه الظروف ، يعني قضية النّهضة ، قضية بناء الحضارة، قضية بناء أو تقديم الواجبات والمطالبة بالحقوق. فالرجل أثار قضايا أساسية ، وهو رجل مبدع ، ولم يكن كاتباً محترفاً ، لكنّه كما يقول عن نفسه: "لو كنتُ كاتباً

محترفاً، لاخترتُ فن الرواية والقصة ، فذلك ما يستهويني ولكنّني صاحب قضية وسلاحي هو قلمي، فهو جاهد بقلمه وأنتج أكثر من 20 كتابا " . ثم يستطرد قائلا : أنَا أقيم في أمريكا منذ سنوات طويلة، وأعرف أنّ بعض الجامعات الأمريكية مهتمة بفكر مالك بن نبي، ودُعيت قبل مجيئي إلى الجزائر في أكتوبر الماضي إلى جامعة ميريلاند، لإلقاء محاضرة باللغة العربية حوله لطلبة الدراسات العليا الذين يتعلّمون اللغة العربية، وأعتقد على حساب وزارة الخارجية الأمريكية، وكتبه الآن مترجمة للغة الإنجليزية والفرنسية والعربية .

وفي "شاهد على القرن" يحكي قصة عجيبة يقول فيها: إنه عاد يوما إلى بيته في باريس وبدأ في تصفح الجريدة اليومية، ويا لهول ما وجد.. شتما وإهانة في حق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تهتز الأرض ، فإذا بالأرض تهتز؛ فظن مالك أن ذلك تصور منه وتخيل، ولكنه في اليوم التالي قرأ أنها هزة أرضية حدثت في نفس الوقت الذي أحس بها فيه مالك .... واترك للقارئ الكريم ليستف حس وحدس مالك بن نبي ...هذا هو مالك المفكر العميق والمؤمن العظيم ... واليوم ، صار على جيلي أن يطلق نفس ، ليس على الوقت ، ولا على معادلة الحضارة ، ولكن على مالك ، على ذلك " البارادايم المختلف " – على مفهوم " الإسلام الحضاري " — المختلف عن كل ما سبق : الإسلام السياسي أو الوعظي أو التقليدي .. أو أي مسمى آخر ... صار على جيلي أن يلتقي بفكر مالك ، لا لقاء الصدفة العابرة عند بائع الكتب المستعملة ، ولا لقاء الثقافة والإطلاع وزيادة المعلومات العامة ، بل لقاء الحتمية ، لقاء الخروج من النفق المظلم الذي دلفنا إليه منذ قرون ... وسيكون من المضحك التصور أن لدى مالك خطة جاهزة للتطبيق ، أو حتى مشروع كامل...صار على جيلي أن يكمل المسير ...

يقول الدكتور عبد العزيز برغوث [12]"مالك بن نبي هو ابن خلدون العصر الحديث . وهي لكلمة موجزة ومعبرة وشاهدة بحق لرجل يستحق ولا فخر ...

ولا نمر دون ان نذكر البروفسور محمد السعيد مولاي وهو أحد التلاميذ الكبار للأستاذ المفكر مالك بن نبي رحمه الله حيث أتيحت له فرصة معايشة ندوات مالك بن نبي ومجالسه منذ 1968 في بيته بشارع ديدوش مراد، ونهل من معينه الرقراق المتدفق بسننية ابن خلدون وعرفانية الغزالي وعلمية ديكارت يرى بأن معالجة الأستاذ مالك لمشكلات الحضارة هي محاولة أصيلة في نوعها وعلمية في صياغتها والأهم من ذلك أنها تصل ما فصله الفكر الغربي الحديث ما بين الدين والدولة وما بين الدين والعلم. فهو يرى مالك بن نبي عن غيره من المفكرين المسلمين قديما وحديثا لأن مالكا يعتبر من أوائل المحدثين في معالجة مشكلات الحضارة بمنهجية علمية دقيقة ، وهو على وجه الخصوص أول المفكرين المسلمين ممن غاصوا حديثا في أعماق الحضارتين الغربية والإسلامية ، بحثا عن أسباب التخلف وشروط النهضة من جهة ومقارنة بين المفاهيم الغربية والإسلامية كالديمقراطية والإسلام والأصالة والعصرنة . من جهة أخرى إذ يقول[13] : من مميزاته أيضا التحليل الدقيق والملاحظة الشديدة وعمق النظر واتساعه في الاطلاع ، فهو إن صح التعبير موسوعة خلدونية وعقلانية ديكارتية . فمالك يجمع فكره بين العلوم التقليدية والعلوم المعاصرة ، والمسلم الحديث سواء كان ملما بعلوم الشريعة أو علوم الطبيعة ، بحاجة إلى مثل هذا التفكير المتوازن والشامل ، فمنهجه العلمي في تحليل القضايا المعقدة يشمل مجال العلوم الإنسانية وعلوم الطبيعة ، وهو من الأهمية بمكان ، وينبغي ترسيخه في الأجيال الصاعدة ... فكثيرا ما تأخذنا في مثل هذه المناهج عاطفة جياشة وغزارة عرفانية على حساب العقلانية الجادة والديكارتية الحادة ، وكثيرا ما تطغى من ناحية أخرى العقلانية الجافة على البصائر القرآنية، فالتوازن أولى وأحرى والوسطية خير الأمور كلها .ولعله من الطريف ما قاله في تمهيد لإحدى كتب مالك بن نبي قول الدكتور محمد المبارك [14]: "أنا لا أقول إنه (نبي) لكني أقول أنه ينهل من نفحات النبوة ، ويتابع

الحقيقة الخالدة". ولذلك فلن نكون مغالين في تشبيه مالك بن نبي بالعلاّمة ابن خلدون في عمق تفكيره وإسهامه في تقعيد الفكر الإسلامي. ومن الطريف أن يمتد هذا التشابه كذلك إلى الظلم الاجتماعي الذي تعرض له كل من المفكرين الذي طوى النسيان إسمهما ودثرت الأيام والسنون أعمالهما .

ودون أن ننسى مقولة مترجمه العربي الأشهر د.عبد الصبور شاهين المصدر [15]: "يعتبر مالك بن نبي واحداً من رجالات القرن العشرين الذين شغلوا أنفسهم بقضايا أمتهم ، وسعوا إلى بلورة الحلول والاقتراحات الكفيلة بإخراج الأمة من تخلفها الشامل المركب ، ودفعها إلى معانقة العصر بفاعلية من خلال تقديمه مشروعاً فكرياً متكاملاً ، في وقت كان فيه العالم الإسلامي يعارك فلول الاستعمار أو يعيش مخلفاته التي كبلت حركته ، وسممت أجواءه الثقافية والفكرية بإفراز نخبة منه حاولت إفهام الرأي العام المسلم أن القوة في اتباع سبل الغرب وتقليد نموذجه الحضاري ، وقد وقف بن نبي رحمه الله ضد هذه الدعوات المضللة وصاغ مقولة "القابلية للاستعمار مقتنعاً بأن الهزيمة الحقيقية للجيل المسلم وكل جيل استوفى شروطه نفسها هي هزيمة نفسية لا تزول إلا بتغيير ما بالنفس مصداقاً لقوله تعالى: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ". الرعد:الاية 11. يقول د.عبد الصبور شاهين حين سألته : "أنت تعلمت في كلية الهندسة لتكون مهندساً في الكهرباء فما الذي دفعك إلى طريق الاهتمام بقضايا النهضة والحضارة ؟ فقال لي فيما أذكر الآن : "إنني بعد أن أصبحت مهندساً في الكهرباء رأيت أن أمتي بحاجة إلى مهندس للأفكار أكثر من حاجتها إلى مهندس للكهرباء ، فعكفت على دراسة كتب التاريخ والفلسفة والاجتماع لأحقق ما رأيت أنني أستطيع أن أقدمه في بلدي ولأمتي العربية والإسلامية."ولذلك يعتبر مالك نموذجا فريداً في هذه الطريق الوعر. فقد أبدع مالك بن بني في عرض الجوانب الأساسية في الإنسان في فكر مالك بن نبي" : الجانب الروحي، والجانب الجسمي، والجانب الوجداني، والجانب

العقلي . وفي شهادة متميزة أخرى يقول د. خالص جلي[16]: "عام 1905م يشهد على ولادة ثلاث عبقريات: فأما الأولى فكانت في الفيزياء النووية دشنها (آينشتاين) في نظرية النسبية الخاصة، وأما الثانية فكانت في الفلسفة، فشهدت ولادة فيلسوف الوجودية (سارتر) الذي كتب حتى عمي، وكان من أغزر من كتب، والثالثة كانت في علم الاجتماع الذي جدد سيرة ابن خلدون، وجاءت من مهندس كهربائي من خارج حقل علم الاجتماع كما هو دأب المبدعين، وكانت من مغربي هو المفكر الجزائري (مالك بن نبي)، كما كان الحال مع ابن خلدون من تونس يعتبر المفكر (مالك بن نبي) طرازاً غير تقليدي من مفكري المسلمين المعاصرين، فهو عاش بين ثقافتين العربية والفرنسية. وأقل الناس معرفة بالرجل هم الجزائريون، وكتاباته انتشرت في الشرق أكثر من الغرب" . وفي سنة 1956 كتب إحسان عبد القدوس قال[17]: زارني شخص كاتب (والكاتب عند المصريين ليس مفكرا بل مستخدم في الإدارة) هو مالك بن نبي، وكان جزائريا، استقبلته وصار يحدثني عن مشروعه، قال: فبدأ يحدثني عن مشاريع كثيرة فلم ألتفت إليه كثيرا فإذا بي أجد أن الأمر جد وأن شيئا جديدا لديه، فإذا بالرجل يغوص في الأعماق وتركني أسبح على وجه الماء ، ثم قال: لأول مرة أرى في حياتي رجلا بهذا الفكر وبهذا العمق ...ملخص القصة يواصل قائلا أن مالكا رأيته في الغد ووجدته يسكن في مكان لا يساوي 40 درهما في الشهر، فقيرا لا يملك شيئا تقريبا مجهولا لا يعرفه أحد ، أخذناه وأسكناه معنا فبدأنا نعمل بعد أن اقتنعنا بأفكاره، وبدأنا بترجمة كتابه شروط النهضة، بدأه الأخ عمر مسقاوي الذي كان يسكن معي أو في الحقيقة أنا كنت أسكن معه لأنه في الحقيقة هو الذي كان له علي الفضل ، وأنهينا الترجمة، وأنا لا أحكي لكم الحكايات ولكن أقول لكم إن الله إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب، وإذا أتيته مشيا أتاك هرولة ...

وفي حوار أجري مع الدكتورة نوره خالد السعد [18] (وهي من الباحثات السعوديات اللائي قدمن إسهامات ثمينة في حقل الفكر الاجتماعي الإسلامي) ، تقول في شهادة لها إن : "كتابات المفكر مالك بن نبي كالبحر العميق إذا لم يتم الإبحار إلى مكامنها واستقرائها (بشكل جيد)؛ فإن التأثر بها يظل لا يرقى بعمقها، ورغم هذا نجد أن هناك عدداً من المفكرين والكتاب في العالم العربي من تأثروا بكتابات مالك بن نبي، أو أسهموا في تحليلها خصوصاً من كان منهم على علاقته بالأستاذ مالك بن نبي مثل: الدكتور عبد السلام هراس، والدكتور الطالبي، وأيضاً الدكتور عبد الصبور شاهين الذي ترجم بعض مؤلفاته، ونجد أيضاً تأثراً بآرائه لدى بعض الكتاب والمثقفين مثل: الدكتور سيد الدسوقي حسن والدكتور محمود محمد سفر، والدكتور أسعد الحمراني ، والأستاذ محمد العبدة، والاستاذ جودت سعيد، والدكتور ماجد عرسان الكيلاني، حيث نجده في مؤلفه "الأمة المسلمة" قد قام بتطبيق مفاهيم نظرية مالك في الثقافة والتربية، وربما هناك آخرون لا تحضرني أسماؤهم حالياً، ولكن في مجمل القول: إن كتابات مالك لم تحدث التغيير (الذي تستحقه) " تقول لقد اطلعت على مؤلفه "شروط النهضة" وانبهرت بأسلوبه وفكره، وبدأت في متابعة مؤلفاته، وعندما تقدمت لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية رغبت التعمق في تحليل أفكار مالك بن نبي، حيث إني لمست أن لديه ما يمكن أن يكون نظرية اجتماعية في التغيير الاجتماعي، وقد استشرت الأستاذ الدكتور أبا بكر باقادر في ذلك ووجدت منه دعماً كبيراً وتشجيعاً ، ولا أنسى دوره في ذلك، ودور الأستاذ الدكتور محمد أسعد نظامي أستاذ النظرية الاجتماعية في جامعة الملك سعود في مساعدتي، والدكتور عبد الله العويسي من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في البداية ، وبحمد الله الذي وفقني لتقديم دراسة وافية عن أفكاره في التغيير الاجتماعي الذي تم نشرها بعد ذلك في كتاب يحمل العنوان نفسه . والعوامل التي دفعتني لذلك ؛ هي أننا

نفتقد في مادة علم الاجتماع أي دراسة عن هذا الجانب لأي مفكر عربي أو مسلم ، ومالك بن نبي لديه الأفكار الكاملة للتطبيق ، ولديه مشروعه الحضاري الذي تجاوز فيه ما لدى ابن خلدون في نظريته عن الدورة الحضارية ، وكان مهم إخضاع هذه النظرية للتحليل وتقديمها لدارس علم الاجتماع لدراستها ونقدها وتقويمها ، واستثمارها في أي مشروع تنموي حضاري. فمالك هو صاحب مدرسة مستقلة ، وصاحب وجهة الطرح السنني العلمي في أفق الفكر الإسلامي وهي وجهة جديدة ويمكن القول: إنه "رائد التفكير السنني" في الفكر الإسلامي .المفكرون الإسلاميون معظمهم لم يظهر لديهم هذا الاهتمام ، وقد يكون هناك من طرح (السننية) ، ولكن أعتقد أنه لم تكن لديهم (نظرية) بالإمكان تطبيقها على إشكالية الحضارة أو أية إشكالية ثقافية أو تنموية بشكل عام .مَن قدم مِن المفكرين العرب نظريات اجتماعية -غير مالك بن نبي- تستطيع أن تكون بديلاً عن النظريات الغربية ؟ نظرية مالك بن نبي في التغيير الاجتماعي التي قمت بصياغتها -كما ذكرت سابقاً- ووضحت أنها تدخل في سياق (النظريات الكبرى) مثل نظرية ماركس مثلاً، أو نظرية سوروكين في التغيير الدوري الحضاري، أو حتى نظرية بارسونزر وفق هذا المنظور لا أعتقد أن هناك من قدم من المفكرين العرب نظرية تكون بديلاً للنظريات الغربية، وإن كانت هناك اجتهادات جيدة قدمها الأستاذ الدكتور معن خليل عمر في مؤلفه "نظرية عربية في علم الاجتماع ."هذه مقاطع... من بحر قد لا ينتهي من علمه وصدقاته الجارية إلى يوم الدين.

يقول مالك في أيامه الأخيرة: "إني أحيي نهايتي..." إني أشعر أكثر فأكثر، في هذه السنة التاسعة والستين من حياتي بشعور ارتياح ، وإني كرجل على ظهره حمل ثقيل، يشكر المولى تعالى أن وفقه على نقل الحمل أبعد وأطول ما يمكن ولكنه يتنتظر وقت وضعه . إن حياتي كانت ثقيلة الحمل وقرب السبعين من عمري فإني أستشف نهايتي بارتياح...." رحمه الله برحمته الواسعة

هذا ما استطعت أن أجمله وأجمعه من أقوال بعض العلماء والمفكرين في العالم العربي حول شخصية مالك بن نبي ولعلها خير شاهد على عبقرية هذا الفذ في عالم الأفكار ... فلك الفخر جزائرنا بهذا العلم الوضاء فكلما ذكر مالك ذكرت الجزائر معه رحمه الله مالكا وأسكنه فسيح جنانه .

نتمنى من كل من يقرأ هذه المقالة ، وفاءا للرجل، وإكراما لعلمه، واعترافاً بإسهاماته في إرساء شروط النهضة ليس في الجزائر فقط ولكن في العالم الإسلامي بتنوعه، وشساعته أن يسجل موقفه بالدعاء والمطالبة أكثر بإيفاء حق الرجل بما يليق مكانته العلمية وقدره الفكري...فالجزائر، غنية برجالها ، ومفكريها، رحم الله الرجل وأسكنه فسيح جنانه ، وإن أنا أطلت فالعذر منكم والمجد والخلود لشهدائنا الأبرار

الهوامش

1. اثناء حضوره الملتقى الدولي الذي نظمه المجلس الإسلامي، الأعلى أيام 24/23/22 شعبان 1424هـ / 20/19/18 أكتوبر 2003م في موضوع فكر مالك بن نبي – رحمه الله –
2. مالك بن نبي،شروط النهضة، دمشق، دار الفكر، 1979، ص1 .
3. مالك بن نبي،آفاق جزائرية، القاهرة، مكتبة عمار، 1971، ص 38 .
4. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 156.
5. الأستاذ محمد الهادي الحسني، مفكر وباحث جزائري ، أستاذ بجامعة الجزائر .
6. بيار شابوي ، اعتنق الإسلام بسبب فكر مالك بن نبي ولد بيار شابوي – المدعو شمس الدين – في منطقة ليون سنة 1930م أصابه العمى وهو في الثانية من عمره ، وقد تلقى تعليما دينيا في الكنيسة ، ولكنه لم يجد إجابات شافية عن تساؤلاته إلا في الإسلام من خلال طروحات المفكر مالك بن نبي في حوار قصير أجراه معه الأستاذ فضيل بومالة في جريدة الشروق الثقافي العدد5 من 4 إلى 11 نوفمبر1993 .
7. بلعيد بشير ، جامعة الجزائر ، من تلامذة مالك بن نبي .
8. رحمة مالك بن نبي ، أصغر بناته الثلاث ، نشر الحوار في يومية البلاد الجزائرية ، 11جانفي 2012 .
9. أحمد زقاوة ، مستشار رئيسي للتوجيه المدرسي والمهني ، مجلة أفق الثقافية : الثلاثاء 08 نوفمبر 2005 .
10. جودت سعيد ، عالم أزهري من المتأثرين بفكر مالك بن نبي بل ويعتبر امتداد له ، في حوار أجري معه : جريدة الغد الأردنية 2000/12/8 .
11. حوار مع جريدة الخبر، الجزائرية 11 يناير 2012 .
12. مفكر جزائري ، وباحث مختص في دراسات العولمة والقضايا المتعلقة بالإنسان المسلم المعاصر وفي الدراسات الحضارية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا لأزيد من 14 سنة موقع شهود نت 25 / 11 / 2005 .
13. محمد السعيد مولاي ، أحد التلاميذ الكبار للأستاذ المفكر مالك بن نبي . رحمه الله . نقلا عن موقع الشهاب .

14. الدكتور محمد المبارك (عميد كلية دمشق سابقا) .
15. عبدالصبور شاهين ، ولد في القاهرة 18 مارس 1929م، كان والده عالماً أزهرياً، دخل الكتاب فحفظ القرآن، التحق بالأزهر، ثم تخرج في دار العلوم عام 1956م، وتدرج في المناصب العلمية حتى أصبح. تنوعت ثقافته بين أزهرية وفرنسية، وشارك في العمل السياسي من خلال مجلس الشورى المصري عام 1987م ، كما اشتغل في مجال الدعوة إلى الله ، وكان له نشاط بارز في الخطابة ، وأوذي في سبيل الله، فاعتقل من مارس 1955 إلى فبراير 1956م ، ثم منع من الظهور في التليفزيون الذي كان من أوائل العاملين فيه، كما منع من الإذاعة، والخطابة. له نشاطه ومجهوداته ومؤلفاته الإسلامية والفكرية واللغوية ، مجلة المجتمع الكويتية العدد: 1564 بتاريخ : 16 أوت 2003م .
16. الملتقى الدولي: مالك بن نبي واستشراف المستقبل من شروط النهضة إلى شروط الميلاد الجديد في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية ، تلمسان 12 . 13 . 14 ديسمبر 2011 م .
17. أول من ترجم كتاب شروط النهضة والظاهرة القرآنية .
18. أستاذة علم الاجتماع بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، موقع الإسلام اليوم 04/10/2003 .